# سحر بهودان

**بقلم: راچ جیل**

«بهودان» هي الحركة الإصلاحية الجديدة التي بدأها «فينوبا» الزعيم الهندي، ودعيت بهذا الإسم. وهي تشجع على أن يتنازل كل من يملك جانبًا من الأراضي الزراعية الواسعة، عن قدر منها عن طواعية، يبلغ نحو السدس، ليوزع على الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا.. وبذلك يتحقق في المجتمع الهندي شيئًا فشيئًا قدر مناسب من العدالة الاجتماعية، ونظام صالح من الاشتراكية الرشيدة، وعلاج ناجع لأخطر المشكلات التي تواجه أبناء الهند.

إن هذه الحركة الإصلاحية يمكن أن تؤدي بهذه الطريقة إلى نتيجة إنسانية وغاية حيرة تؤكد الروحانية التي تأصلت جذورها في تربة الشرق الطيبة، وتخاطب مشاعر الإنسان النبيلة ليخفف عن المجتمع الذي يعيش فيه الآلام والمتاعب، ويشيع فيه السلام والسعادة والرضا.

وحركة «بهودان» بهذه المثابة وهذا التفسير فضيلة.. ولكن هل طريق الفضيلة معبد دائمًا، أم أن القلوب مختلفات.. منها ما يستجيب لدعوة الخير، وما يستجيب لشطحات الهوى، ومنها ما يلين ومنها ما يقسو حتى يصير كالحجارة، أو أشد قسوة؟!

وصل «بهادر سنغ» إلى حقله يلهث من طول الطريق وتقدم السن.. ووقف على الحافة الضيقة يرسم حدود الأرض، ثم وضع يده فوق جبينه الذي ينضح بالعرق، وأغمض عينيه وضغط عضلات جفنيه ينفض قطرات الماء.. ومد إصبعه ومسح بها فوق جبهته وخديه..

وتقبلت الأرض هذا الرذاذ من صاحبها تقبل المشوق المستهام، الظامئ إلى كأس من.. المدام!

ومسح الشيخ ذراعيه أيضًا، وتطلع إلى الأفق وهو يرسل الشعاع الملتهب ثم مشى نحو الشجرة الفارغة بالقرب من «الشونة».

وقطع بخطاه الحقل في طريقه.. ورأى أعواد الزرع مائلة كالمتعب، ومتعطشة تعاني من الجفاف، ولم يعبأ بحرارة الشمس حتى وصل إلى ظل الشجرة الوارف المبترد.. وفي الظل أحس بجسمه يتقد ويتلظى، كأنما كان هو الذي يوصع الحرارة بدلًا من الشمس.. وخلع عمامته، وتخلص من قميصه المبتل، وحلس حيال جذع الشجرة السميك.. الخشن، وأطلق تنهيدة طويلة، نفس بها عن ضيق صدره..

***

ورويدًا رويدًا خفت وقدة الحر وزايلت بدنه.. واستطاع أن ينعم بالنسيم اللطيف المنبعث من الظل.. ورفع عينيه.. أن حقله على امتداده وسعنع التي تصل إلى ثلاثة وثلاثين فدانًا قد أحاط به البصر وهو في دلسته هذه.. وعلى صفحته الزروع الذهبية اللون أو الداكنة، تخترقها الحفافي الضيقة والقنوات طولًا وعرضًا... وارتفعت هنا وهناك أطراف البرسيم.. ولوزات القطن.. وأعواد القصب.. وأخذ يراقبها بحنو وشغف كالأم حين تحنو على أولادها.

ولكنه في لحظة واحدة شعر بمرارة تخامر قلبه، جعلته يغضب وينفعل، فاعتدل في جلسته ولوح بيده وصاح كأنما يتوعد عدوه غير المنظور:

«ما شاء الله!.. لأنظرن أبناء الخنزير هؤلاء الذين سيأتون ويستولون على حقلي!».

لقد كان، قبل نصف ساعة فقط، يجلس في «دوار» القرية، وهناك سمع بأن هناك لجنة ستصل إلى القرية وتعمد إلى توزيع الأرض على الزراع والسكان، وقال وهو يستمع إلى هذا النبأ «يا لها من طريقة همجية غادرة.. يسلبون الفرد ما يملكه ليعطوه لآخرين، كأن الأشياء ليس لها صاحب» وقال له أحد الحاضرين إن الحكومة تآزر اللجنة وتقف خلفها، وإنه ليس في مقدور أحد أن يتظلم أو يذهب إلى المحكمة.. وأزعجت الأنباء «بهادر سنغ» وأثارته، ولم يقو على المكث في الدوار أكثر مما مكث، فغادره وهرول إلى حقله، كأنما يخشى أن يغير عليه قطاع الطريق للسلب والنهب.. ولكنه عندما أخذ مكانه ذاك في ظل الشجرة، بدأ يفكر في المسألة كلها من جديد..

وجعل يحدث نفسه قائلًا:

«إذا كانت الحكومة تقف بجانب هذه اللجنة، فهذا معناه أنني سأفقد أرضي لا محالة.. ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا الإجراء

الظالم؟ أليس الله يرى من عليائه كل شيء، فلماذا يدع مثل هذا الظلم يقع على عبيده، والله دائمًا يحمي الضعفاء والأمناء؟!».

وكأنما أراد بهذا المنطق أن يعزي نفسه، وإن لم يكن من الصواب أن ينظر إلى الله متدخلًا في إجراءات أو أنظمة تضعها أو تتخذها حكومة ما. إنه يعلم أن الله وإن كان يرى كل شيء إلا أنه يتعقب أو يقلب كل شيء..

لقد كان الرجل، بهادر سنغ، ثاني شخص يملك زراعة واسعة في القرية، وعلى ذلك لن يكون بمنجاة مما تصنعه اللجنة!

واكتأب الشيخ، وأطال النظر إلى حقله الممتد تحت عينيه.. وخيل إليه أن هذه الرقعة الزراعية الواسعة كائن حي، يتحرك ويكون وحدة واحدة متشابكة متداخلة، وفوق ظهر هذا الكائن جثم جسم ضخم كبير وبدا له أنه هو نفسه ذاك الكائن، وأن قطيعًا من الذئاب قد ظهر فجأة وأحاط بجسمه وتشممته الذئاب كما يتشمم الوحش فريسته، وتخيرت ضحيتها، وغرزت فيها أنيابها وأعملت فيها تمزيقاً وتشريحاً!

وانتصب بهادر سنغ قائماً وهو يحس بألم شديد في جسمه، كأن طعنة قد سددت إليه.. كانت هناك نملة كبيرة ذات ساقين طويلتين تعبث في أصبع رجله اليمنى، وأمسك بها بين إبهامه وسبابته وقذف بها بعيداً عنه فانشطرت شطرين.. وبقى جسمها بين أصبعيه، وبقي رأسها وقرناها مغروسة في جلده، واستطاع أن يتخلص من هذه الأشلاء جميعاً، ولكن

موضع اللدغة التهب وتورد، وأخذ الرجل يفرك الموضع بأصبعه، وتوقف عندما شعر بأن هناك شخصاً قائماً عند رأسه.

وقال القادم:

– تحياتي للأخ.. هل تأذن لي في الجلوس قليلاً؟

فقال الشيخ:

– تفضل.. تفضل.

ومرت برهة صمت أراد القادم أن يقطعها بالحديث، فقال:

– إن اليوم الحر!

وأومأ الرجل برأسه.. إنه لا يشعر بارتياح إلى قدوم الزائر.. ربما كان أحد أعضاء اللجنة المشئومة.. من يدري! لقد غضب لأن مثل هذا الشخص يجرؤ على أن يغزوه في أرضه ويصعر له خده. لم يعد في هذا الزمن خير كما كان فيما مضى.. إنك لا تأمن على شيء أو تطمئن إلى أحد.. وخير شيء تفعله هو أن تتذرع بالصمت.. وتنتظر!

وعندما وصل تفكير الرجل إلى هذا الحد، استند بظهره إلى جذع الشجرة وأغمض عينيه...

ولكنه لم يسترح في جلسته، وغير طريقته مستنداً بجنبه الآخر، فلم يستريح كذلك، وبدل موضعه أكثر من مرة ومع ذلك كان يتململ..

وأخيرًا تظاهر بالحاجة إلى النوم ورفع جسمه على هيئة الجالس وفتح عينيه في بطء..

***

كان الزائر يرقب الحقل الكبير.. وتحول بناظره إلى مزرعة القطن وكانت أطرافه شاحبة اللون.. إن الحرارة تفعل فعلها في أعواده!

وألم بالشيخ قلق مفاجئ.. لا شك أن الرجل من أعضاء اللجنة!.. وحاول أن يتكلم ولكن الكلمات توقفت في حلقه واستعاد في خياله حلمه الذي رآه منذ لحظات.. حلم الذئاب المهاجمة التي تعمل أنيابها في الفريسة!

وانتفض من الخوف والإشفاق..

وبدأ الزائر يتكلم:

– لقد كانت هذه الفترة هي وقت نزول الأمطار..

وأومأ الشيخ غير عابيء..

واستأنف الرجل كلامه:

– إن الوقت قد تغير.. نعم تغير.. فالأمطار الآن إما أن تسقط مبكرة أو متأخرة، ولكن لا تنزل في موعدها..

– نعم، لشد ما أتمنى لو ينزل المطر.. إنني لا أطيق أن أمكث متبطلًا.. أريد أن أعمل في حقلي!

وقال الزائر في بساطة واطمئنان:

– من الخير دائمًا أن تحرث الأرض وتعدها للغرس قبل المطر..

ونظر إلى الأرض ثانية من جهة الجنوب واستأنف يقول:

– إن حقلك مناسب لزراعة الأرز.. أرضة واطئة وسهلة التصريف.

وتطلع «بهادر سنغ» إلى الحقل قبل أن يجيب، ليطمئن قلبه، وقال:

– أجل، أستطيع أن أزرع الأرز في حقلي، ولكن أين الماء؟.. إن الماء غير كاف.. حتى القطن والبرسيم والقصب لا تصيب حاجتها!

– أنت على حق أيها الأخ.. إن الماء في أرضنا نادر شحيح، ولكنك ستحصل على كل ما تريده من الماء.. إن خزان «بهاكرا» الجديد سيمدنا بما نحتاج إليه..

– لقد سمعنا.. ولكن...

كل شيء.. ماذا تقول كتبها المقدسة – أقدم كتب في العالم – عن العطاء والإحسان؟ ماذا يعملنا أنبياؤنا العشرة عن الجود والبذل؟ ألم يوصونا بأن نقتسسم كل ما نمتلك مع إخواننا؟،،

وأومأ الشيخ برأسه مؤمنًا على ما جاء في الوصية، وإن لم يكن موافقًا على الموضوع..

وأكمل الرجل كلامه قائلًا:

– إنك لا تعلم عن فضيلة العطاء كم هي حسنة.. إنك تجلب لغيرك السعادة من غير انتظار للشكر ولا أمل في الجزاء.. إن هذا يأتي بالسلام إلى روحنا وبالمسرة إلى فؤادنا، وإنه يذهب بمرارة الحقد والحسد ويزيل أسباب الإحن والضغائن والمطامع، والآن أخبرني: ألا تكون سعيدًا إذا ما أعطاك أحدهم قطعة من الأرض لتزرعها وتملكها؟ الا توفر عليك عندئذ كثيرًا من أسباب الفقر والمتاعب والمصاعب التي واجهتها وأنت تحيا حياة العناء والشقاء والحاجة التي أنت نفسك تعانيها؟

وبقيا وقتًا طويلًا يتحدثان عن وصايا الدين وعن فضيلة الإحسان، وعن موضوعات أخرى، وظل بهادر سنغ يصغي باهتمام إلى كلام محدثه، حتى إنه لم يذكر متى استأذن في الانصراف ومضى!

***

وفي المساء، عندما أخذ الشيخ طريقه عائدًا إلى منزله، جعل يفكر هل يحدث زوجته عن هذا الموضوع أم لا يحدثها.. إن كل مسألة وكل مشكلة سهلة العلاج والحل عند هذه الزوجة الصوفية العقبل الفطرية التفكير لأنها تجعلها على لسانها ولا تتركها إلا محلولة معقولة.. حتى

الشر أو الخطأ حين يقع، تراه هي قد حدث للخير.. لأنه يمنع شرًّا أعظم ويحجب نازلة أكبر!.. إنها في إيجاز تنظر إلى الأشياء من وجهها المضيء المشرق، إنها تتفاءل دائمًا ولا تفكر في الجانب المظلم أبدًا.. ولذلك كان بهادر سنغ في أكثر الأحيان لا يستريح إلى رأيها ولا يأخذ بوجهة نظرها.. لقد اعتزم ألا يخبرها بموضوعه، ومع ذلك لم يلبث أن غير رأيه، فإنها ستعلم به على أي حال..

وأسرع في خطاه كأنما كان يخشى أن يتحول عن رأيه مرة أخرى..

– هل سمعت عن أناس يقدمون أراضيهم بالمجان؟

– لا، ولكن أبي قدم بيته القديم للمجلس القروي.. قدمه بالمجان طبعًا..

بهذا أجابته الزوجة، وهي مطمئنة كأنما جاءته بأبريق من اللبن تعطيه طبقة سميكة من «الكريمة»!

وعادت تقول:

– وحفر كبيرنا في القرية بئراً، على بعد ثلاثة أميال من القرية.. حفرها للمسافرين وأبناء السبيل.. وقد كلفته ١,٢٠٠ روبية. ولكن من يعبأ بالنفقات مادام ينفق في سبيل الله؟.. إنك تعطي، وتأخذ..

واستشاط الشيخ غضبًا.. لقد وضعته في مأزق حرج.. وقال محاولًا التخلص..

– ولكن الأمر يختلف بالنسبة للأرض، إن لا تنفقينها كما تنفقين بعض الصدقات.. إن أحدًا لا يفعل ذلك.. أنا لا أستطيع أن أصدق هذا..

وجد الزوج نفسه يقول هذا، مع أنه أراد أن يقرب الموضوع إلى نهايته..

وقالت الزوجة على طريقتها:

– إذا كنت يا عزيزي لا تريد أن تصدق فذلك شأنك.. أنت حر.. قالت ذلك ببساطتها المعهودة وجلست مطمئنة في موضعها تجتر أحلامها!

واعترف الرجل بينه وبين نفسه، أنها لا تقول إلا صواباً وصدقاً، ولكن هذه الحقيقة قد جعلت منه امرءاً غاضباً كأي حقيقة واقعة أخرى. وقال في نفسه أنه ربما استطاع أن يبحث الموضوع بصورة أفضل أثناء الليل..

***

وفي اليوم التالي، كان أفراد لجنة بهودان يأخذون أماكنهم في قاعة الدوار.. وكان الجميع الحاضر كبيراً، وعندما انتهى رئيس اللجنة من خطابه موضحاً غرض اللجنة، متحدثاً عن فضيلة العطاء، سرت بين

الحاضرين موجة من التعقيبات والتعليقات الخافتة المختلفة وقال أحدهم متمتماً:

– لا تصدقوه.. إنه لص..

وقال آخر:

– إنهم يريدون أن يجردونا من أراضينا ليوزعوها على الأقارب والمحاسيب..

وقال ثالث:

– لماذا لا تذهبون إلى القرى الأخرى والمدن الأخرى وتسألونها الإحسان وتستجدون منها التبرعات؟!

وعلت الأصوات الساخرة وعبارات الهزء والتهكم، وتحرج مركز اللجنة وتأزم الموقف، ولاح الجو ينذر بالفشل والخطر.

ولم يلحظ أحد في هذا الزحام وهذا الاضطراب «بهادر سنغ» وهو يدخل إلى الدوار، وقد ارتدى أحسن ثيابه وشق طريقه رأسًا إلى أن وصل إلى حيث يجلس أعضاء اللجنة، وجلس في موضع مرتفع..

ورحب به رئيس اللجنة محيياً

وقال الشيخ في وضوح وعزم:

– لقد جئت إلى هنا لأقدم نصف أرضي التي أملكها..

وفوجئ الجميع، وأعلن الرئيس هذا التبرع السخي وتغير الجو على الفور، وتحول الجميع من احتجاجهم السابق إلى همس يسري بينهم في شبه مؤتمر.

ووقع بهادر سنغ على الأوراق الرسمية ومضى في سبيله لم ينتظر حتى يرى الحاضرين وهم يقفون، ويتوجهون واحدًا بعد الآخر نحو اللجنة مبتهجين مقدمين تبرعاتهم وعطاياهم مما يملكون.. نصف فدان، فدانًا ونصف فدان، خمسة أفدنة، ١١ روبية، ٥١ روبية، مائة روبية، محراثًا واحدًا، مناجل، خزانة خشبية، إلخ... كان الناس يعطون ويشعرون بسعادة لأنهم يعطون..

وذهب بهادر سنغ إلى حقله، وتفقده جزءاً جزءاً في رضل واغتباط، وأخيراً قال يخاطب نفسه:

– سأعطيهم خير ما أملك، وسأعمل بكل همة، وسأنتج مما يتبقى لي من أرض قدر ما كنت أنتجه من كل أرضي..

شيء عميق في قلبه كان يوحي إليه أنه سيفعل، بكل تأكيد..

– إن وجوده يجلب لشعبه اللعنة أكثر مما يجلب الخير.. إن أي فرد سواه يمكن أن يكون ملكاً عليهم أفضل منه..